UNIVERSITE DE SFAX
FACULTE DES LETTRES ET SCIENCES HUMAINES DE SFAX

جامعة صفاقس
كلية الآداب و العلوم الإنسانية بصفاقس

بحوث جامعية
Academic Research
Recherches Universitaires

عـــدد 7

الاستبداد والحرية
Despotisme & Liberté
Despotism & Freedom

جانفي 2010

بحوث مجمعة أشرف على نشرها الأستاذان :

عبدالعزيز العيادي - علي الزيدي

الاستبداد والحرية
Despotisme & Liberté
Despotism & Freedom

UNIVERSITE DE SFAX
FACULTE DES LETTRES ET SCIENCES HUMAINES DE SFAX

جامعة صفاقس
كلية الآداب و العلوم الإنسانية بصفاقس

بحوث جامعية
Academic Research
Recherches Universitaires

N° 7

الاستبداد والحرية
Despotisme & Liberté
Despotism & Freedom

Janvier 2010

Etudes éditées sous la direction de :

AYADI Abdelaziz - ZIDI Ali

بحـــوث جامعيـــة

مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس

عدد 7

عيينة بن حصن الفزاري : بيوغرافيا سيد قبيلة

محمد الجوادي

أستاذ مساعد بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس

يتناول هذا البحث دراسة شخصية قبلية هامة، وهو عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر بن عدي بن عمرو الفزاري. اسمه حذيفة ويكنى أبو مالك، لكن غلب عليه لقب "عيينة" بعد أن أصيب وجهه بلقوة أو بشجة جحظت منها عيناه [1]. حظي بالسيادة خلال فترة ما قبل الإسلام وأدرك الإسلام وهو سيد قومه من بني فزارة إحدى أبرز مجموعات قبائل غطفان. وقد كان له تبعا لذلك حضورا هاما في أحداث الفترة النبوية وما يعرف في المصادر بحركات الردة. لا تمدنا الروايات بتاريخ دقيق لوفاته، حيث تكتفي بالقول بأنه مات خلال خلافة عثمان [2]، أي في فترة ما بين سنتي 23 هـ و35 هـ / 644-655 م.

ومما دفعنا إلى البحث في بيوغرافيا هذه الشخصية هو ذلك التضارب الذي رافق سيرته حيث تتحدث المصادر عنه كأحد أبرز سادة البدو. لكنها تضفي عليه في المقابل العديد من الهنات التي تجعل منه "أحمق" و"أهوج" و"جشعا" و"انتهازيا" وما إلى ذلك من الصفات التي تتنافى مع السيادة. لكل هذه العوامل ارتأينا دراسة هذه الشخصية علنا نصل إلى تفسير منطقي لهذه الثنائية التي ميزت شخصيته.

---

1) البلاذري، ***جمل من أنساب الأشراف***، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي، دار الفكر، بيروت، 1417 هـ/ 1996 م، ج 13، ص 171، ابن هشام، ***السيرة النبوية***، تحقيق مصطفي السقفا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، (د-ت)، ج 2، ص 289، ابن حزم، ***جمهرة أنساب العرب***، تحقيق عبد السلام محمد هارون، طبعة دار المعارف، مصر، 1391 هـ /1971 م، ص 255- 256، ابن حجر، ***الإصابة في تمييز الصحابة***، دار الفكر، بيروت، (د-ت)، ج 3، ص 54. واللقوة هي داء يكون في الوجه يعوج منه الشدق: انظر ابن منظور، ***لسان العرب***، دار صادر، بيروت، 1389 هـ، ج 15، ص 253.

2) البلاذري، ***أنساب الأشراف***، ج 13، ص 175، ابن حجر، ***الإصابة***، ج 3، ص 55.

وقد ارتأينا تناول هذه الدراسة في ثلاث عناصر رئيسية. يتناول العنصر الأول البحث في العوامل التي جعلت عيينة يحظى بالسيادة. ثم تطرقنا في عنصر ثان إلى دراسة أوجه علاقاته بالدولة النبوية وبحركة الردة التي قادها طليحة بن خويلد الأسدي في وسط شبه الجزيرة العربية. وانطلاقا من النتائج التي توصلنا إليها في العنصرين الأول والثاني، فقد حاولنا إيجاد تفسير للجانبين المتضاربين اللذين أضفتهما الروايات على عيينة بن حصن من خلال حديثها عن تواصل سيادته لقومه خلال الفترة الإسلامية، وفي نفس الوقت عبر وقوفها ضده ووصفه بسلوك يتنافى وهذه السيادة.

I- عوامل سيادته خلال فترة ما قبل الإسلام

تعود مكانة عيينة إلى انتمائه إلى قبيلة بدوية حربية هي قبيلة بني فزارة وإلى ما ورثه من مجد عن آبائه. ينضاف إلى ذلك قدراته الذاتية مما مكنه من وراثة السيادة والقيادة لا فقط داخل قبيلته، بل وفي كامل مجموعات غطفان.

1- عيينة بن حصن يحظى بمكانة القبيلة وبشرف البيت

تقسم بني فزارة، إلى خمس مجموعات رئيسية تتمثل في بني عدي، وهو الفرع المباشر الذي ينتمي إليه عيينة، وبني سعد، وبني شمخ، وبني مازن، وبني ظالم [1]. وتعتبر فزارة أبرز فروع مجموعات قبائل ذبيان والتي تنضوي بدورها داخل مجموعات قبلية أوسع تتمثل في قبائل غطفان، قيس عيلان/ مضر. وغطفان هي عبارة عن كنفدرالية قبلية تضم علاوة على ذبيان بمختلف فروعها عديد القبائل على غرار عبس، وأشجع، وبغيض، وأنمار، وثعلبة، ومرة [2]. وقد كانت منازلها تمتد بنجد وبشمال المدينة ولاسيما في المناطق الممتدة من وادي القرى إلى حدود تبوك شمالا [3].

---

1) ابن حزم، ***الجمهرة***، ص 255.

2) ***المصدر السابق***، 248-259.

3) الواقدي، ***المغازي***، تحقيق مارسدن جونس، أكسفورد، 1966، ج 2، ص 565، الطبري، ***تاريخ الأمم والملوك***، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، بيروت 1967، ج 3، ص 9، البكري، ***معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع***، تحقيق مصطفى السقا، مكتبة الخانجي، ط. 3، 1417 هـ/ 1996 م، ج 1، ص 21-22، القلقشندي، ***نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب***، القاهرة 1959 م،

وتمثل عشيرة بني بدر التي ينحدر منها عيينة بن حصن بيت فزارة وعددهم [1]، وكانت لهم تبعا لذلك رئاسة كامل بني فزارة، وهو ما يعني أن تأسيس شرف القبيلة وأمجادها هو من صنع هذه السلالة باعتبار أن امتلاك الشرف هو من فعل تتابع الأجيال على السيادة [2]. كما يتبين أيضا أن لبني بدر إشعاع يمتد على كامل غطفان إلى حد أن الروايات اعتبرته أشرف بيت في كامل قبائل قيس عيلان [3]، كما اعتبرته من بيوتات العرب التي لم تكن تتجاوز الخمس، وفي رواية أخرى لابن دريد [4] هي ثلاث بيوتات فقط ، وهي تلك التي تعاقب فيها ثلاثة آباء على سيادة قبيلة قوية واتصل ذلك بكمال الرابع [5].

إن المتأمل في بيوتات العرب يلحظ أنها قد اختيرت من المجموعات القبلية الكبرى [6]، فبنو زرارة بن عدس التميميين مثلا قد تم اختيارهم من بين قبائل خندف، وبنو معاوية الأكرمين/ كندة من ضمن قبائل اليمن، وبيت ذي الجدين: شيبان/ بكر بن وائل هم صفوة بيوتات ربيعة. ومن الهام القول أن هذا الاختيار قد انبنى أساسا على القدرات القتالية لهذه البيوتات وعلى إمكانات عناصرها في التعبئة في مستوى يتجاوز القبيلة خلال الوقائع والأيام التي دارت بين القبائل خلال فترة ما قبل الإسلام. كما يرجح أن "انتخاب" هذه البيوتات قد تم في فترات لاحقة، خلال العهد الأموي،

392، القلقشندي، ***قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان***، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، ط. 2، بيروت 1402 هـ / 1982م، ص 112، 1400 هـ/ 1980 م، كحالة، معجم القبائل العربية الحديثة والقديمة، دمشق 1949، ج 1، ص 29 وج 3، ص 918.

1) ابن دريد، ***الاشتقاق***، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط. 3، القاهرة (د-ت)، ص 284، ابن حزم، ***الجمهرة***، ص 256.

2) جعيط، في السيرة النبوية، ج 2، تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، دار الطليعة، يناير 2007، ص 56.

3) المبرد، ***الكامل في اللغة والأدب***، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999/1419، ج1، ص 292- 293، القلقشندي، ***قلائد الجمان***، ص 114.

4) ابن دريد، ***الاشتقاق***، ص 399.

5) ابن عبد ربه، ***العقد الفريد***،تحقيق عبد المجيد الترحيني،دار الكتب العلمية، بيروت 1987، ج3، ص285-286، ابن خلدون، ***المقدمة***، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1962، ط2، ص241-242، الجوادي (محمد)، الأشراف من ظهور الإسلام إلى نهاية القرن الأول للهجرة، بحث لنيل شهادة الدكتوراه، إشراف د. راضي دغفوس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جوان 2002، ص 27- 28.

6) ابن عبد ربه، ***العقد الفريد***، ج 3، ص 285.

وهو ما تبينه رواية لابن عبد ربه عن أبي عبيدة [1] تقول بأنه "اجتمع عند عبد الملك بن مروان في سمره علماء كثيرون من العرب، فذكروا بيوتات العرب، فاتفقوا على خمسة أبيات: بيت بني معاوية الأكرمين في كندة [...] وبيت بني بدر في قيس".

كما تعود مكانة بني بدر بن عمرو إلى أهمية **عدد أفراده من الذكور** والذين كانوا يساهمون في منعته وقوته ويحظون عبره بالسيادة داخل غطفان، حيث تعتبر أهمية العدد أحد أبرز مكونات القوة والشرف والتفوق على العشائر الأخرى [2]. وقد كان لبدر بن عمرو ثمانية أبناء، ولحذيفة بن بدر ستة أبناء، ولابنه حصن عشرة ولعيينة ثمانية أو عشرة [3].

ولئن ساد كامل أبناء بدر بن عمرو الثمانية في قومهم [4]، فإن الروايات تركز على مكانة جد عيينة، أي حذيفة بن بدر بن عدي، حيث يذكر الجاحظ [5] أنه كان يحيا بتحية الملوك ويقال له "أبيت اللعن". كما كان يلقب برب معد [6]. وتتعلق كلمة "رب" في فترة ما قبل الإسلام، علاوة على ارتباطها بالذات الإلهية، بالسيادة حيث كانت من الألفاظ التي تطلق على كل من تجب له الطاعة من ملوك وسادة قبائل [7]، من ذلك مثلا أن هوذة بن عمرو كان يقال له رب الحجاز [8]. وعن حذيفة بن بدر يقول لبيد بن ربيعة العامري :

وأهلكن يوما رب كندة وابنه ورب معد بين خبت وعرعر [9].

---

1) ***المصدر السابق***، نفس الصفحة،

2) جعيط (هشام)، تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، ص 56.

3) ابن شبة، ***تاريخ المدينة المنورة***، تحقيق محمد شلتوت، منشورات دار الفكر، قم، 1410 هـ/ 1986م، ج 2، ص 534، ابن حزم، ***الجمهرة***، ص 256-257، ابن حجر، ***الإصابة في تمييز الصحابة***، ج 3، ص 55.

4) ابن حزم، ***الجمهرة***، ص 256.

5) الجاحظ، ***كتاب الحيوان***، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الجاحظ، ط 2، مصر (د-ت)، ج1، ص 328.

6) الجاحظ، ***الحيوان***، ج 1، ص 329، ابن حزم، ***الجمهرة***، ص 256.

7) ابن منظور، ***لسان*** العرب، مقال "ربب"، ج 1، ص 399-409، الجاحظ، ***الحيوان***، ج1، ص 328-329. نجد كلمة "رب" بهذا المعنى في القرآن : مثال في الآية 42 من سورة يوسف : "وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك".

8) ابن دريد، ***الاشتقاق***، ص 547.

9) الجاحظ، ***الحيوان***، ج 1، ص 329، جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، 1976، ج 4، ص 562.

ويرتبط هذا اللفظ حسب "ديكوبار" Décobert [1] بسدانة الصنم التي كانت من صلاحيات السلالة التي تتمكن من السيطرة على بقية السلالات الأخرى داخل القبيلة بفضل امتلاك القوة "العسكرية" (امتلاك الأسلحة، وجود عدد محدود من الفرسان ومن الحلفاء الإضافيين) وعبر الحركية الإقتصادية (السيطرة على الآبار وعلى أجود المراعي ومن خلال النشاط التجاري...)، وهو ما يعني ترابط الجانبين الحربي والديني عند هؤلاء السادة. فالسيد هو فارس، لكنه في نفس الوقت سادن المعبد، وكاهن، وحكم. وبهذا فإنه يصبح "ربا" متقلدا لقوة بشرية ما قريبة من القوى الخارقة : فهو يحرس الصنم، ويسير الأضاحي، ويدير القرابين، ويحكم، وهو أيضا "رب القبة" حيث يحمل إله القبيلة في قبته عند السفر، ويختار المراعي الجديدة ويقسم الأراضي... . كما يذكر الأستاذ هشام جعيط [2] أنه كان لكل قبيلة ولكل عشيرة جدا أعلى مؤسس للربوبية ينتمي إلى الأسرة أو البيت الذي فيه البيت والعدد. وأن المعنى العتيق للربوبية يعني امتلاك صنم الإله "بيت الإيل"، كما أن هؤلاء الأرباب كانوا يجمعون بين السلطة الدنيوية وخدمة الدين.

أما في خصوص "معد" التي كان حذيفة سيدها، فإنه لا يمكن أن تعني في كل الأحوال كامل مجموعة قبائل معد بن عدنان (مضر وإياد وربيعة)، وبالرجوع إلى كتب اللغة فإن هذا اللفظ يعني شظف العيش وغلظة المعاش [3]. وحسب جواد علي [4]، فإن كلمة "معد" كان لها نفس معنى "أريبي" أو "عريبي" عند الآشوريين: أي البدو والأعراب. وبهذا المعنى يمكن أن تنسحب هذه اللفظة على مجموعة من القبائل البدوية التي تجعل نفسها من نسب واحد.

وتبرز مكانة هذا البيت القتالية من خلال انتماء حذيفة وابنه حصن وحفيده عيينة إلى الجرارين [5]، أي الذين قادوا ألف مقاتل في فترة ما قبل الإسلام. وقد كان من النادر خلال هذه الفترة أن يتمكن سيد قبيلة من جمع هذا العدد من المقاتلة والذي يتجاوز إمكانيات القبيلة الواحدة. وقد قاد حذيفة بن بدر كامل بني ذبيان في حرب

---

1) DECOBERT (Chr.), Le mendiant et le combattant. L'institution de l'Islam, éd. Seuil, Paris 1991, p 164-166.

2) جعيط، تاريخية... مرجع سابق، ص 55.

3) ابن منظور، ***لسان العرب***، ج 3، ص 404، ابن دريد، ***الاشتقاق***، ص 31، جواد علي، المفصل، ج 4، ص 385.

4) جواد علي، المرجع السابق، ج 4، ص 389.

5) ابن حبيب، ***كتاب المحبر***، تحقيق إيلزه ليختن شتيتر، حيدر أباد الدكن، الهند 1942، ص 249.

داحس والغبراء ضد عبس التي كان يقودها زهير بن جذيمة العبسي، وذلك بسبب سباق خيل كانا قد تراهنا عليه واشتركت فيه أحسن الجياد وفي مقدمتها داحس والغبراء. وتعتبر هذه المعركة من أبرز المعارك التي شهدتها فترة ما قبل الإسلام، وقد استمرت عدة سنوات، وعرفت العديد من الأيام شاركت فيها عدة قوى قبلية، ومن أبرز هذه الأيام [1] : يوم "العذق" ويوم "البوار" ويوم "الهباءة" ويوم "الجراجر". وقد قتل في هذا الصراع كل من حذيفة بن بدر في يوم الهباءة، وأخوه حمل وابناه مالك وعوف. وتميزت حرب داحس والغبراء ببروز شخصية عنترة بن شداد في صفوف بني عبس. وقد انتهت المعارك بعقد صلح بين الطرفين أشرف عليه الحارث بن عوف سيد بني مرة، منهيا بذلك الصراع داخل مجموعة غطفان.

كما قاد ابنه حصن بن حذيفة في يومي "النسار" و"الجفار"، الأحاليف وهي مجموعات من قبائل غطفان وبني أسد وطيء وبني عامر بن صعصعة، ضد بني ضبة من تميم [2]. وفي هذا الإطار توجد رواية للكلبي يذكر فيها أن أبا عيينة، أي حصن بن حذيفة، كان أعز العرب حيث قسم فيء أحد المعارك في قبته بين الحليفين أسد وغطفان [3]. وتعكس وصية حصن لأبنائه بعض الخصال التي كانت تميز أشراف البدو ولاسيما تلك المتعلقة بالجانب القتالي. ومما جاء في هذه الوصية : "[...] وصونوا الخيل فإنها حصون الرجال، وأطيلوا الرماح فإنها قرون الخيل، واغزوا الكثير بالكثير، ولا تغزوا إلا بالعيون".

2- سيادة عيينة لقومه

لم تكن مكانة عيينة محددة فقط بالانتماء إلى هذا النسب الأثيل، بل إن منزلته في بني فزارة وحتى في كامل مجموعات غطفان قد ارتبطت بما أداه من أدوار قيادية في عديد الأيام التي ترأسها ضد بعض القبائل العربية. وفي هذا السياق، تطلعنا

---

1) ***المصدر السابق***، ص 249، البلاذري، ***أنساب***، ج 13، ص 156-170، ابن هشام، ***السيرة النبوية***، ج 1، ص 286-287، ابن الأثير، ***الكامل في التاريخ***، دار الفكر، بيروت، 1398 هـ / 1978 م، ج 1، ص 343-355، ابن حزم، ***الجمهرة***، ص 256، جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 5، ص360-361.

2) ابن حبيب، ***المحبر***، ص 249، ابن عبد ربه، ***العقد الفريد***، ج 1، ص 256، ابن الأثير، ***الكامل في التاريخ***، ج1، ص 376- 378، جواد علي، المفصل، ج 5، ص 3377-378.

3) ابن حبيب، ***المحبر***، ص 249، البلاذري، ***أنساب***، ج 13، ص 174.

الروايات على قصة طريفة تفيد أن أباه، حصن بن حذيفة، قد أصيب في إحدى الغزوات. فجمع أبناءه وطلب منهم أن يجهزوا عليه حتى يستريح من ألم طعنة ألمت به، فأبى أبناؤه قتله وقبل بذلك عيينة. لكن أباه أمره بالعدول عن ذلك عندما أيقن أنه سيمتثل لأوامره، ثم ولاه الرئاسة لطاعته له[1]. ورغم طبيعة هذه الرواية الأسطورية، فإنها تشرع إلى جدارته بوراثة السيادة والقيادة من دون اخوته. ومن المرجح أيضا أنها رواية متأخرة تم استيحاؤها من شخصية عيينة الذي تسبغ عليها الروايات طابع الجفاء والقسوة، وكذلك من قياداته في المعارك سواء في فترة ما قبل الإسلام، أو بعد ظهوره.

من خصاله أنه كان سيدا يأخذ المرباع، أي ربع الغنيمة من الغزوات، كما أنه خمس في الإسلام،أي أخذ خمس الغنيمة، وتذكر الروايات [2] أن هذا لم يجتمع لغيره من العرب، كما تذكر أنه كان سيد كامل قبائل قيس [3]. وقد قاد قبيلته من بني فزارة وأحلافها في العديد من المواقع، أبرزها [4] : يوم "الرقم" ضد بني عامر بن صعصعة ويوم"السجاسى" التي قاد فيها غطفان ضد بني تغلب بالجزيرة الفراتية ويوم "جزع ظلال" (أو طلال) حيث أغار فيه على بني تميم وأصاب العديد من الغنائم والأسرى أطلقهم فيما بعد دون فدية.

II- عيينة خلال الفترة الإسلامية

برزت نشاطات عيينة بن حصن الفزاري أثناء الفترة الإسلامية من خلال علاقاته بالدولة النبوية، ثم عبر انضمامه إلى حركة الردة التي قادها طليحة بن خويلد الأسدي في وسط شبه الجزيرة العربية.

---

1) البلاذري، ***أنساب***، ج 13، ص 171، ابن حجر، ***الإصابة***، ج 3، ص 55.

2) ابن شبة النميري، ***تاريخ المدينة المنورة***، ج2، ص 537-538، المرزوقي الأصفهاني، ***الأزمنة والأمكنة***، حيدر أباد الدكن، 1332، ط. 1، ج 2، ص 330.

3) المبرد، ***الكامل***، ج1، ص 292-293.

4) ابن حبيب، ***المحبر***، ص، 249، البلاذري، ***أنساب***، ج 13، ص 174-175، ابن عبد ربه، ***العقد الفريد***، ج 1، ص 233، جواد علي، المفصل، ج5، ص 376.

1- عيينة خلال الفترة النبوية

ارتبطت أهم الأحداث التي رافقت قبائل غطفان خلال الفترة المدنية ارتباطا وثيقا بعيينة بن حصن الفزاري، حيث برز من خلال علاقاته بالدولة النبوية سيدا وقائدا لكامل هذه المجموعة القبلية ولا فقط لقبيلته المباشرة من بني فزارة. ويمكن تقسيم هذه العلاقات إلى فترتين رئيسيتين. فترة أولى امتدت من سنة 5 هـ /626 م إلى قبيل فتح مكة سنة 8 هـ/ 629 م، وقد شهدت العلاقات فيها توترا وصراعا بين الطرفين، ثم فترة ثانية غطت السنوات الثلاث الأخيرة من الفترة المدنية وتميزت بموادعة عيينة لدولة النبوة.

أ- عيينة يواجه الدولة النبوية

لئن تميزت علاقات عيينة بن حصن ومن ورائه قبائل غطفان بدولة النبوة بطابعها العدائي إلى حدود سنة فتح مكة، فإن ما يشد الانتباه هو تأخر هذا العداء إلى حدود غزوة الخندق سنة 5 هـ/626 م، وذلك عندما تحالف مع قريش ويهود بني قريظة ضد المسلمين. وقبل هذا التاريخ لا نجد سوى إشارة واحدة تفيد أن بلاد عيينة بن حصن أجدبت، فوادعه الرسول في شهر ربيع الأول من سنة 5 هـ/ 526 م ،على أن يرعي بمنطقة "تغلمين" التي هي على بعد ثمانية وثلاثين ميلا من المدينة والتي كانت قد أخصبت "بسحابة وقعت عليها" [1].

لكن لماذا تأخرت المواجهة بينهما إلى هذه الفترة، ولماذا أيضا انطلقت العلاقات بمعاهدة؟

من المرجح أن عيينة لم يكن يرى نفسه طرفا في الصراع بين المسلمين وقريش، وأنه وإلى حدود تلك الفترة لم تتوفر له ولفزارة من الحوافز ومن الغنائم ما يمكن أن يغريه بالدخول في مواجهة ضد المسلمين. هذا علاوة على أن البدو المحيطين بيثرب من غطفان وغيرها من القبائل الأخرى لم يكن باستطاعتهم قبل الهجرة مهاجمة يثرب [2] تبعا لما يتميز به سكانها من العرب واليهود من قدرات هامة في الدفاع عن مدينتهم. لكن يبدو أيضا أن أحداث غزوة "ذي أمر"سنة 3 هـ/

---

1) الطبري، *التاريخ*، ج 2، ص 564، ابن سعد، *الطبقات الكبرى*، دار صادر، بيروت، 1959، ج 2، ص 63.

2) الواقدي، *المغازي*، ج 2، ص 477.

624 م، والتي مثلت انطلاق العلاقات بين مجموعات من بدو غطفان بدولة المدينة، قد ساهمت بدورها في تأخير المواجهات ضد هؤلاء البدو إلى حدود غزوة الخندق. وتتمثل مراحل هذه الوقعة [1] في أن عناصر من ثعلبة (غطفان) تؤازرها عناصر أخرى من محارب بن خصفة عملت على مهاجمة أطراف المدينة. لكن الرسول بادر بمواجهتهم عندما خرج في 450 مقاتل مما أدى إلى فرار هذه المجموعات قبل أن تقوم بالإغارة. ويبدو أن خروج النبي في هذا العدد الهام كان عامل ردع لهؤلاء البدو خلال فترة تربو عن السنتين.

وخلال غزوة الخندق في شوال 5 هـ/ 626 م، تذكر المصادر أن فزارة هي القبيلة الوحيدة التي "أوعبت" عند محاصرة المدينة [2] أي أنها الوحيدة التي خرجت بأكملها في ألف مقاتل وذلك تحت إمرة عيينة بن حصن، وهو ما يؤكد مكانته وتأثيره في قومه. وتبرز أحداث هذه الغزوة أن الطمع في الغنيمة هو الذي كان وراء خروج قبائل غطفان ولاسيما فزارة حيث يذكر الواقدي [3] أن اليهود اتصلوا بغطفان ووعدوهم بتمر خيبر لمدة سنة "على أن يسيروا مع قريش إلى محمد إذا ساروا. فأنعمت بذلك غطفان، ولم يكن أحد أسرع إلى ذلك من عيينة بن حصن".

ويتأكد عنصر الغنيمة عندا اشتد الحصار على المسلمين حيث هم الرسول بأن يصالح كل من عيينة بن حصن والحارث بن عوف سيد بني مرة على ثلث تمر المدينة على أن "يرجعا بمن معهما ويخذلان بين الأعراب". لكن عيينة اشترط نصف المدخول، ولم يتم الاتفاق معه لاسيما بعد المعارضة التي أبداها بعض الصحابة من الأنصار: أسيد بن حضير وسعد بن معاذ وسعد بن عبادة [4].

وتعتبر غزوة ذي قرد والتي تعرف أيضا بغزوة الغابة [5] : ربيع الثاني من سنة 6 هـ/ 627 م، ثاني مواجهة يقودها عيينة ضد المسلمين. وهي سنة شهدت قحطا مما جعل النبي يطلق الإبل لترعى في منطقة الغابة قرب المدينة في اتجاه الشام. وقد استغل عيينة الفرصة بالإغارة على هذا السرح في أربعين فارسا عدى المدد الذي

---

1) ***المصدر السابق***، ج 2، ص 193-194، الطبري، ***التاريخ***، ج 2، ص 194-195.

2) الواقدي، ***المغازي***، ج 2، ص 443-444، ابن سعد، ***الطبقات***، ج 2، ص66.

3) الواقدي، ***المغازي***، ج 2، ص 443.

4) الواقدي، ***المغازي***، ج 2، ص 477-479.

5) ***المصدر السابق***، ج 2، ص، الطبري، ***التاريخ***، ج 2، ص 596-604.

التحق به. ومن الواضح أن دافع الغنيمة والقحط قد كانا المحرك الرئيس لمثل هذا الهجوم خاصة وأن منطقة الغابة تقع في نواحي مواطن فزارة وغطفان عموما. لكن من المرجح أيضا أن عدم حصول عيينة على نصف أو ثلث ثمار المدينة من التمور خلال غزوة الخندق قد مثل بدوره حافزا هاما للقيام بمثل هذه الغارة. وقد انتهت هذه الغزوة بالفشل حيث تمكن المسلمون من استرجاع ما غنم منهم من الإبل، كما قتل في هذه الغزوة أحد أبناء عيينة. ومما له دلالاته قيام المسلمين بصلاة الخوف خلال مراحل هذه الوقعة [1] تحسبا لهجوم خاطف يمكن أن يشنه سيد بني فزارة ومن معه من أتباعه. ولعل هذا الحذر هو نابع من معرفة المسلمين بأساليب البدو القتالية والتي تتميز بالغزو الخاطف والمفاجئ. تلك الأساليب التي تعودوا عليها في غاراتهم وأيامهم خلال فترة ما قبل الإسلام.

إثر هذه المواجهة، قام بنو فزارة وتحديدا بنو بدر، أي عشيرة عيينة المباشرة، باعتراض قافلة تجارية للمسلمين يقودها أسامة بن زيد في منطقة وادي القرى وذلك في رمضان سنة 6 هـ/ 627 م، وافتكوا ما بحوزتهم من المال، ثم قامت سرية للمسلمين لاحقا بغزوهم والحصول على غنائم [(2)]. لكن ما يبرز هو غياب عيينة عن نهب أموال القافلة، ومن الممكن أن مرد هذا الغياب له صلة بما لقيه في غزوة الغابة، وربما يعود إلى تربصه في القيام بمواجهة جديدة ضد المسلمين.

وفي نفس السياق، يمكن اعتبار غزوة خيبر من أهم الغزوات التي تؤكد أهمية عامل الغنيمة في شحذ همة عيينة ومن معه من أعراب فزارة وغطفان. ففي هذه الغزوة التي تمت في جمادى الأولى سنة 7 هـ/ 628 م، تحالف عيينة مع يهود خيبر الذين كانوا يجاورونه في المجال [(3)]، وخرج في كامل غطفان وعددهم في حدود 4000 مقاتل، وهو عدد هام يصعب جمعه من طرف قائد قبيلة، إذ يكفي كما أشرنا أن يقوم السيد بتعبئة 1000 مقاتل حتى يعد من الجرارين. لكن نلحظ في المقابل عدم خروج بقية الرؤساء من غطفان الذين وقفوا ضد المسلمين في الخندق، مما قد يعني قناعتهم بصعوبة المواجهة في فترة أصبحت فيها المبادرة للدولة النبوية. وقد عرض النبي على عيينة نصف تمر خيبر أو كامل تمرها خلال سنة مقابل الانسحاب. لكن

---

1) الواقدي، ***المغازي***، ج 2، ص 546.

2) ***المصدر السابق***، ج 2، ص 563-565.

3) الطبري، ***التاريخ***، ج 3، ص 9.

عيينة رفض بعد أن ظن أن الغلبة ستكون ليهود خيبر تبعا لمنعة حصونهم وكثرة رجالهم وأسلحتهم وقدرتهم على المطاولة في الحرب.

لم تكن مساندة عيينة ومن معه من الأعراب بالمجدية. إذ تتحدث الروايات على أنه أخلى، أثناء الحصار، حصن "ناعم"، أحد حصون النطاة، والذي كان يدافع عليه واتجه إلى مواطن قبيلته ليطمئن على أهله بعد أن ظن أن المسلمين "قد خالفوهم إليهم"، وهو ما سهل على المسلمين السيطرة على حصون خيبر. ويرى "وات" WATT [1] أنه يمكن أن يكون وراء هذا الانسحاب دعاية من طرف المسلمين تهدف إلى عزل غطفان عن مناصرة اليهود.

وعند عودة عيينة مع قومه من جديد، وجد أن الأمر قد حسم حيث أخفق اليهود في الدفاع عن حصونهم في خيبر وهو ما حرمه ومجموعات غطفان من الحصول على الغنائم. ورغم ذلك فقد طلب من النبي، دون جدوى، أن يسهمه من الغنائم باعتبار أنه قد انصرف عن قتاله في أربعة آلاف مقاتل [2].

إن مشاركة غطفان في هذه الغزوة تؤكد مرة أخرى على هشاشة الطابع القتالي للقبيلة والذي لم يكن يتعدى الغزو الخاطف والمحدود في الزمان كما يبرز من أطوار الأيام والوقائع التي كانت تدور فيما بينها خلال فترة ما قبل الإسلام [3]، وهو ما يعني أنه لم يكن للقبيلة لا القدرة ولا الإمكانيات المادية على خوض غمار معركة طويلة ومنظمة. ولعل مثل هذا السلوك القتالي لقبائل البدو تعكسه قولة تنسب لسعد بن عبادة حيث قال للنبي : "لا تعط هذا الإعرابي تمرة واحدة. لئن أخذه السيف ليسلمن وليهربن إلى بلاده كما فعل ذلك قبل يوم الخندق". كذلك ما ينسب إلى كنانة بن أبي الحقيق، أحد سادة يهود خيبر، من أنه قال : "كنا في هؤلاء الأعراب في باطل. إنا سرنا فيهم فوعدونا النصر وغرونا. ولعمري لولا ما وعدونا من نصرهم ما نابذنا محمدا بالحرب. ولم نحفظ كلام سلام بن أبي الحقيق [أحد سادة بني قريظة في المدينة] إذ قال لا تستنصروا بهؤلاء الأعراب أبدا، فإنا قد بلوناهم [...] فلم نجد عندهم وفاء لنا". ومهما كانت صحة هاتين الروايتين، فإنهما تعكسان طبيعة القتال لدى قبائل البدو.

---

1) WATT, Mahomet à Médine, éd. Payot, Paris 1959, p 116.

2) الواقدي، *المغازي*، ج 2، ص 676.

3) هشام جعيط، تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، ص53-54.

تعتبر غزوة "الجناب" [1] قبيل فتح مكة، آخر الغزوات التي تمت ضد عيينة ومردها تحالفه مع جمع من غطفان بالجناب قرب خيبر للزحف على المدينة، ويمكن أن تكون دوافع عيينة هي الثأر من فشله في غزوة خيبر وخروجه بدون غنائم، أي أنها نفس الدوافع التي تلت إخفاقه في الخندق. لكن يبدو أيضا أن محاولة عيينة هذه لم تكن هامة حيث أن عدد أتباعه هذه المرة لم يكن كبيرا، ومن الممكن أن عدم قدرته السابقة في مواجهة المسلمين هي التي كانت وراء قلة عدد من خرج معه. وتبعا لذلك فقد قاد النبي ضده سرية تضم 300 مقاتل يقودها بشير بن سعد، انتهت بحصول المسلمين على غنائم وبفرار عيينة بن حصن.

ويعتبر "وات" WATT [2] أن هذا العداء الذي أبدته مجموعات غطفان تجاه الدولة النبوية يعود إلى عوامل قبلية محض ترتبط بفترة ما قبل الإسلام. حيث يذكر أنه اعتبارا إلى أن هوازن كانت أبرز أعداء غطفان على امتداد بضع عشرات من السنين، وكانت أيضا عدوة لقريش خلال فترة ما قبل الإسلام، فإنه يمكن ترقب تقارب بين غطفان وقريش. لكن عداء كل من قريش وغطفان لهوازن يمكن أن ننتظر من ورائه تحالفا بين الطرفين ضد هوازن، ولا يمكن أن يعني بالضرورة حدوث تحالف موجه ضد دولة النبوة، فهذه المعادلة التي أبرزها "وات" ليس لها أي معنى. وبتتبع أحداث الفترة المدنية لا يبرز أن المحرك لعداء عيينة ومن ورائه من غطفان لدولة المدينة سببه تحالفات مع قريش، فبني فزارة وغطفان عموما كانت مجالاتها بعيدة عن قريش، كما لم تكونا من بين القبائل التي كانت تنتمي إلى حلف الأحابيش، أي ذلك الحلف الذي كان يهدف إلى الدفاع عن الحرم وإلى حماية مكة والذي كان يضم المجموعات القبلية الحليفة لقريش. وقد ساندت قبائل هذا الحلف قريشا منذ غزوة أحد سنة 3 هـ/624 م [3]، بينما تأخرت مبادرة غطفان في الوقوف إلى جانب قريش إلى حدود الخندق، كما أنها لم تتم إلا بمبادرة من يهود المدينة الذين كانوا يجاورونهم في المجال والذين نشطوا في الاتصال بغطفان (فزارة ومرة وأشجع) في الخندق [4]. وهكذا يتبين أن الدوافع الرئيسة لمساندة قريش هي الغنيمة كما تبينه قولة

---

1) الواقدي، ***المغازي***، ج 2، ص 727- 731.

2) WATT, Mahomet à Médine, p 114.

3) الواقدي، ***المغازي***، ج 1، ص 200- 201.

4) الواقدي، ***المغازي***، ج 2، ص443، ابن سعد، ***الطبقات***، ج 2، ص66، الطبري، ***التاريخ***، ج 2، ص 566، ابن هشام، ***السيرة***، ج 2، ص 215.

تنسبها المصادر لعيينة بن حصن في غزوة الخندق [1] : "إنا والله ما جئنا ننصر قريشا، ولو استنصرنا قريشا ما نصرتنا ولا خرجت معنا من حرمها، ولكني كنت أطمع أن نأخذ تمر المدينة فيكون لنا به ذكر مع ما لنا فيه من منفعة".

ب- عيينة يوادع دولة المدينة

إن الإخفاق الذي وجده عيينة في مواجهة دولة المدينة يعود بدرجة كبرى إلى أن مواجهته للمسلمين قد جاءت في فترة متأخرة، أي بعد أن أخذ المسلمون المبادرة في مواجهتهم للقبائل المعادية من البدو. ولعل هذا ما اضطر عيينة إلى "الدخول في الإسلام" مباشرة بعد غزوة الجناب. ويذكر الواقدي [2] أن "إسلامه" قد تم بنصيحة من الحارث بن عوف المري. كما يروي أن وفود عيينة إلى المدينة لإعلان إسلامه لم يحدث إلا بعد أن يئس من استنفار بعض سادة الأعراب لقريش التي كانت ملتزمة في تلك الفترة بصلح الحديبية.

وعند التوجه إلى فتح مكة في رمضان من سنة 8 هـ/ 629 م، لم تكن فزارة من ضمن القبائل التي أرسل إليها النبي للخروج معه، شأنها في ذلك شأن العديد من القبائل الكبرى لاسيما تلك التي كانت ديارها في نجد على غرار تميم وعامر بن صعصعة. وفي هذا السياق، تذكر المصادر [3] أن القبائل التي شهدت الفتح، بالإضافة إلى المهاجرين والأنصار، هي أسلم وكعب بن عمرو (خزاعة)، وغفار ومزينة وجهينة وأشجع وسليم؛ أي أساسا القبائل الضعيفة والتي أبدت تأييدها للدعوة النبوية منذ فترة مبكرة من المرحلة المدنية، وذلك إذا استثنينا بني سليم، وبدرجة أقل أشجع المنتمية إلى غطفان والتي يمكن تفسير تعبئتها بموقف سيدها نعيم بن مسعود الأشجعي الإيجابي من الإسلام حيث أدى دورا هاما في التفتين بين الأحزاب وفك الحصار عن المدينة أثناء غزوة الخندق [4].

---

1) الواقدي، ***المغازي***، ج 2، ص 445.

2) ***المصدر السابق***، ج 2، ص 729-730.

3) ***المصدر السابق***، ج 2، ص 799-800، ابن سعد، ***الطبقات***، ج 2، ص 135، ابن هشام، ***السيرة***، ج 2، ص 421.

4) الواقدي، ***المغازي***، ج 2، ص 480-485، ابن هشام، ***السيرة***، السيرة، ج 2، ص 229-233.

وانطلاقا من الأرقام التي قدمها الواقدي حول العدد الذي ساهمت به كل هذه المجموعات في جيش الفتح، فقد تسنى لنا إحصاء حوالي 8400 مقاتل نصفهم تقريبا من المهاجرين والأنصار (4000 من الأنصار و700 من المهاجرين) وذلك من جملة 10000 الذين تذكر الروايات أنهم شهدوا فتح مكة. ويعني هذا أن المجموعات الكبرى لم يكن مرغوب في خروجها، وأن من خرج منها كان بمبادرة فردية من بعض الرؤساء على غرار عيينة بن حصن والأقرع بن حابس التميمي واللذان التحقا بجيوش الفتح في الطريق مع بعض المجموعات من قبائلهم، حيث لم يتسن لهم الوقت الكافي لجمعها كلها. وهذا ما أقره عيينة للرسول عندما التحق به وقال له : "يا رسول الله، بلغني خروجك ومن يجتمع إليك فأقبلت سريعا ولم أشعر فأجمع قومي فيكون لنا جلبة كبيرة" [1]. ومن المرجح أن خروج الرسول في هذا العدد الهام هو الذي كان وراء إسراع عيينة بالخروج. ولعله كان يطمح في أن يكون وراء هذه التعبئة غير المعلن عن أهدافها غزوة هامة قد توفر له بعض الغنائم.

وفي رواية لعيسى بن عميلة الفزاري أن النبي دخل مكة بين الأقرع بن حابس، أحد سادة تميم، وعيينة بن حصن [2]. لكن يبدو أن هذه الرواية لا معنى لها، وأنها كانت تهدف إلى إبراز مكانة رؤساء القبائل لاسيما وأن الراوي ينتمي إلى فزارة. هذا فضلا على وجود رواية أخرى لدى ابن سعد [3] تقول أن الرسول دخل مكة بين أبي بكر وأسيد بن حضير، أحد سادة الأوس.

وعند الخروج إلى غزوة حنين ضد هوازن في شوال من سنة 8 هـ/629 م، نلحظ نفس المجموعات القبلية التي شاركت في الفتح انضاف إليها تقريبا ألفان من أهل مكة، أي من قريش، ومن المرجح أيضا من مجموعات من خزاعة لم تكن شهدت فتح مكة. حيث يذكر الواقدي أن النبي خرج في 12000 مقاتل، 10000 من أهل المدينة، وألفان من أهل مكة : المهاجرون والأنصار وأسلم وغفار وضمرة وليث وكعب بن عمرو ومزينة وجهينة وأشجع وسليم التي جعلها الرسول في مقدمة الخيل [4]. ويعني هذا مرة أخرى عدم مشاركة القبائل الكبرى وبقاء عيينة بن حصن

---

1) الواقدي، ***المغازي***، ج 2، ص 803.

2) ***المصدر السابق***، ج 2، ص 804.

3) ابن سعد، ***الطبقات***، ج 2، ص 135.

4) الواقدي، ***المغازي***، ج 3، ص 896-897.

الفزاري في مجموعات قليلة من غطفان. وما يمكن أن يؤيد هذا هو ضيق الوقت الذي كان يفصل بين دخول المسلمين إلى مكة وخروجهم لمواجهة قبيلة هوازن والذي لم يتجاوز خمسة عشر يوما [1]. كما أنه وبالرجوع إلى تقسيم غنائم حنين في الجعرانة على من شارك في هذه المعركة نلحظ أن المصادر تصف المجموعات القبلية الطارئة المستفيدة، والتي لم يذكر اسمها بأنهم من أفناء العرب : بكر بن عبد مناة، وعامر بن صعصعة، وتميم، وفزارة [2].

وبالعودة إلى وصف أطوار معركة حنين، يتبين غيابا لغطفان ولعيينة بن حصن في المعركة، كما هو الشأن أيضا بالنسبة إلى تميم وبني عامر بن صعصعة. لكن الطريف الذي يبدو من خلال الروايات هو ذلك الصراع بين عيينة بن حصن الفزاري والأقرع بن حابس سيد بني تميم، منذ التوجه إلى فتح مكة، وذلك من خلال التفاخر بين الرجلين بالقبيلة وبالشرف. ومثل هذا السلوك يعكس العداء الذي كان يسود العلاقات بين تميم وغطفان خلال فترة ما قبل الإسلام والذي تميز بمعارك بين الطرفين على غرار يومي "كفافة" و"جزع ظلال" الذي قاده عيينة نفسه [3]. كما يبرز هذا الصراع أيضا من خلال قصة محلم بن جثامة حيث تذكر الروايات أنه في غزوة بطن إضم [4] التي سبقت فتح مكة، قام محلم بن جثامة بن قيس الليثي بقتل عامر بن الأضبط الأشجعي وهو على الإسلام. وفي حنين طالب عيينة بن حصن، باعتباره سيد غطفان، بالاقتصاص من محلم، بينما تمسك الأقرع بن حابس بدفع الدية. وقد أدى هذا الخلاف إلى حدوث توتر بين عناصر من قيس تؤيد الاقتصاص من محلم، وأخرى من خندف تمسكت بدفع الدية، انتهت بتدخل النبي الذي ألزم عيينة بأخذ الدية مائة من الإبل.

ويبدو أن سياسة النبي في دمج رؤساء القبائل قد آتت أكلها، إذ لأول مرة يعين عيينة بن حصن، وبطلب منه، في قيادة إحدى السرايا التي تمت سنة 9 هـ/ 630 م. وتذكر الروايات عن أسباب خروج هذه السرية أن النبي أرسل بسر بن سفيان الكعبي

---

1) الواقدي، ***المغازي***، ج 3، ص 889.

2) ابن هشام، ***السيرة***، ج 2، ص 495.

3) ابن حبيب، ***المحبر***، ص، 249، كحالة، معجم القبائل العربية، ج 3، ص 919، جواد علي، المفصل، ج5، ص 376. كحالة، معجم القبائل العربية، ج 3، ص 919.

4) الواقدي، ***المغازي***، ج 3، ص، الطبري، ***التاريخ***، ج 3، ص 35-36، ابن هشام، ***السيرة***، ج 2، ص 626-629.

(كعب بن عمرو/ خزاعة) لجمع صدقات قبيلته. وعند وصوله إلى ديار بني عمرو، جمعت له هذه القبيلة المواشي وهو ما استنكره فرعان من بني العنبر من تميم كانا يجاورانها في المجال، حيث عملا على منعها من إخراج أموال الصدقة مما حدا ببسر إلى العودة إلى المدينة وإخبار الرسول بذلك، فقام بإرسال سرية يقودها عيينة بن حصن الفزاري تضم خمسين رجلا، تمكن عبرها من أسر بعض العناصر من الأطفال والنساء مما حدا ببعض سادة تميم بالإسراع إلى المدينة لاسترجاعهم [1]. ويبدو أن اختيار عيينة كان يهدف إلى تأليفه وإعطائه بعض المكانة في الإسلام، لكن يتبين أيضا أن هذه السرية لم تكن هامة من حيث عدد المشاركين فيها، وكذلك من حيث مكانة العناصر التي خرجت تحت إمرته حيث كانت تضم عناصر من البدو، ولم يشهدها أي عنصر من المهاجرين والأنصار.

وما يمكن استنتاجه هو أن دخول عيينة في الإسلام جاء بعد أن أيقن بعدم إمكانية المواجهة، وأن مصلحته ومصلحة قبيلته تقتضي موادعة دولة المدينة. لكنه بقي ينتظرا تجدد الفرصة، ولعل هذا ما يفسر عدم مشاركته في وفد قبيلته إلى النبي في سنة 9 هـ / 630 م، حيث حضر الوفد بضع عشرة رجلا أبرزهم أخوه خارجة بن حصن وابن أخيه الحر بن قيس بن حصن [2]. ويفترض "وات" [3] أنه يمكن أن يكون وراء ذلك اتفاقا سريا بين النبي وعيينة على أن يبقى عيينة مشركا. لكن من الصعب إثبات هذه الفكرة لاسيما وأن المصادر لا تذكر ذلك. وكل ما يمكن تأكيده هو بقاؤه متربصا كما تبينه مشاركته في حركة الردة أثناء خلافة أبي بكر، عندما ساند طليحة بن خويلد الأسدي. فكيف تبرز هذه المشاركة ؟

3- دور عيينة بن حصن الفزاري في ردة طليحة بن خويلد الأزدي :

يعتبر طليحة بن خويلد سيد قبيلة بني أسد،إحدى أبرز قبائل منطقة نجد. وقبيل وفاة النبي في سنة 11 هـ/632 م، قاد حركة الرّدّة في قبيلته والتي يمكن اعتبارها أهمّ الحركات التي شهدها وسط شبه الجزيرة العربية [4]. وقد تدعمت هذه الحركة إثر وفاة الرسول عندما ساندته عديد القبائل من غطفان وخاصة من فزارة بالإضافة إلى

---

1) الواقدي، ***المغازي***، ج3، ص 974-975، ابن سعد، ***الطبقات***، ج2، ص 161.

2) ابن سعد، ***الطبقات***، ج 1، ص 297.

3) WATT, Mahomet à Médine, p 117.

4) الطبري، ***التاريخ***، ج 3، ص 244، الجوادي، الأشراف ...، مرجع سابق، ص 192-193.

مجموعات أخرى من عبس وذبيان [1]. وقد كان طليحة من الذين نسبوا إلى أنفسهم النبوة معتبرا نفسه نبيّا يأتيه ذو النون [2]. ويأتي هذا التنبؤ في إطار موجة من التنبؤات عمّت جزيرة العرب قام بها العديد من أشراف القبائل على غرار الأسود العنسي باليمن، ومسيلمة بن حبيب باليمامة، وسجاح في تميم، وذو التاج بعمان.

التحق عيينة بطليحة بن خويلد في 700 من بني فزارة [3]. وقد تمثلت أبرز العوامل التي كانت وراء تأييده لهذه الحركة في :

- عوامل ترتبط بالامتناع عن دفع الصدقة ذلك أن اتباعه لسيد بني أسد يعفيه ويعفي أتباعه من فزارة من دفع الزكاة إلى دولة المدينة. ويذكر الواقدي [4] أن عيينة كان يقول "الكل من لقي من الناس : احبسوا عنكم أموالكم؛ قالوا : فأنت ما تصنع ؟ قال : لا يدفع إليه [أي إلى أبي بكر] رجل من فزارة عناقا [أي الأنثى من الماعز] واحدة، ولحق عند ذلك بطليحة". وتتماشى هذه الرواية مع رواية أخرى تذكر أنه ساوم أبا بكر في المحافظة على موادعته بمقابل مادي : "إن جعلت لنا شيئا كفيناك ما وراءك" [5].

- عوامل قبلية تتمثل في العلاقات الجيدة التي كانت تربط بني أسد بغطفان قبيل فترة ما قبل الإسلام وتحالفهما معا، وهو ما يبينه اشتراكهما في عديد الأيام على غرار أيام "داحس والغبراء" و"النسار" و"الجفار". وإثر وفاة النبي وظهور حركة الردّة عمل عيينة على إعادة الحلف مع بني أسد، وبالتالي مع طليحة وهو ما يؤكد أهمّية التحالفات القبليّة في الفترات الأولى من الإسلام. يقول عيينة حسب رواية سيف [6] : "لئن نتّبع نبيّا من الحلفين أحبّ إلينا من أن نتّبع نبيّا من قريش".

---

1) الكلاعي، ***تاريخ الردة*** (مأخوذ من كتاب ***الإكتفاء***)، تحقيق خورشيد أحمد فاروق، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة (د-ت)، ص31

2) البيهقي، ***المحاسن والمساوئ***، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر(د-ت)، ص 49، الجوادي، الأشراف ... مرجع سابق، ص 193.

3) البلاذري، ***فتوح البلدان***، تحقيق عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، 1407 هـ/1987 م، ص 134.

4) الواقدي، ***تاريخ الردة***، رواية محمد بن الأعثم الكوفي، تحقيق يحي الجبّوري، دار الغرب الإسلامي 1410 هـ / 1990 م، ص 45.

5) الواقدي، ***تاريخ الردة***، ص 45، الكلاعي، ***تاريخ الردة***، ص 45.

6) الطبري، ***التاريخ***، ج 3، ص 257.

لم تكن مساندة عيينة لطليحة مغايرة لمواقفه السابقة فعندما حميت المعركة بين المسلمين الذين كان يقودهم خالد بن الوليد ومجموعات طليحة انسحب من المعركة في بني فزارة مما تسبب في أسره وفي هزيمة طليحة. لكن أبا بكر حقن دمه وخلى سبيله بعد أن "عاد إلى الإسلام" [1]، أو لنقل بعد أن رأى نفسه مجبرا من جديد على القبول بالإسلام كما تبرزه إحدى الروايات من أنه قال لمن وصفه بالمرتد بأنه لم يسلم حتى يرتد [2]. وما يمكن ترجيحه أن أسباب عفو أبي بكر عنه تعود إلى مكانته وإلى محاولة تطويق الأزمة وتأليف بني فزارة.

III- شخصيته في الميزان : عيينة "الأحمق المطاع"

قامت الروايات التي تحدثت عن عيينة بن حصن بإبراز جانبين متضاربين ميزت بهما هذه الشخصية ويمكن جمعهما في ما ينسب إلى النبي من أنه لقبه "بالأحمق المطاع" [3]. فهي من ناحية تقر بتواصل مكانته القبلية خلال الفترة الإسلامية، وبإشعاعه داخل بني فزارة وحتى داخل كامل مجموعات غطفان، ولكنها وقفت في المقابل ضده، حيث كالت إليه عيوبا تصفه بالحمق وبضعف الرأي وتسمه بطبيعة الأعراب المبنية على الجفاء والقسوة. فكيف تنعكس هذه المكانة التي حظي بها، ولماذا هذا التضارب الذي تحدثنا عنه المصادر في الجمع بين السيادة والحمق؟

1- مكانته في الإسلام

يتبين من المصادر أن الرسول لم يقطع مع أصحاب الشرف القبلي من سادة القبائل البدوية باعتبارهم مفتاحا لولوج عالم القبيلة. ولعل تشريف عيينة بقيادة إحدى الغزوات، رغم أنها لم تكن هامة، يدخل في هذا التوجه. وفي هذا الإطار تبرز المصادر حرص الرسول على إسلام الأرستقراطية الحربية من كبار سادة القبائل وأشرافها أو على الأقل ضمان موادعتها. وأسباب هذه السياسة واضحة وتتمثل في حاجة الدولة إلى هذه النخبة لاختراق القبيلة والمراهنة عليها لنشر الإسلام، وهو ما

---

1) البلاذري، ***فتوح البلدان***، ص 134، الطبري، ***التاريخ***، ج 3، ص 260.

2) البلاذري، ***أنساب***، ج 13، ص 173، السهيلي، ***الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام***، تحقيق عبد الرحمان الوكيل، دار الكتب الحديثة، ط.1، 1387 هـ/ 1967 م، ج 7، ص 287.

3) ابن حبيب، ***المحبر***، ص 249، البلاذري، ***أنساب***، ج 13، ص 172، ابن حجر، ***الإصابة***، ج3، 54.

يعني أن الهدف هو كسب القبائل العربية القوية وتوحيدها تحت سلطة الإسلام. ولهذا نلحظ بروز المؤلفة قلوبهم وهم من رؤساء القبائل وأشرافها : "يتألفهم ويتألف بهم قومهم" [1]. وقد ظهرت هذه الفئة لأول مرة عند توزيع غنائم هوازن بالجعرانة مباشرة بعد حصار الطائف. أما المصطلح فيبدو أنه ظهر في سنة 9 هـ/ 630 م عند نزول سورة التوبة حيث تجعلهم الآية 60 من بين مستحقي الصدقة : أي الزكاة [2]. وتذكر الروايات أن غنائم الجعرانة كانت هامة حيث قدر السبي ب6000 من النساء والذراري - تم عتقهم لاحقا -، والمواشي بحوالي 24000 من الإبل، و40000 من الغنم [3]. وقد كان عيينة في الجعرانة من العناصر المحظوظة التي تحصلت على مائة من الإبل، وهي عناصر لم يكن عددها يتعدى الأحد عشر نفرا من بينهم ثمانية من قريش. أي أن أصحاب المئين من البدو هم ثلاثة من السادة : عيينة بن حصن والأقرع بن حابس ومالك بن عوف [4]. ومثل هذا العطاء يعبر عن مكانة عيينة وقبيلته، ولا يعبر عن دوره في المعركة، إذ أن النبي لم يميز مثلا الأنصار في الغنائم [5].

لكن أيضا لا يمكن المبالغة والقول بأن عيينة كانت له منزلة حميمة لدى الرسول مثلما ذهب إلى ذلك عيسى بن عميلة الفزاري الذي روى أن النبي دخل مكة عام الفتح بين عيينة والأقرع. أو ما رواه مروان بن معاوية الفزاري [6] من أن عيينة دخل على النبي وعنده أبو بكر وعمر وهم جلوس على الأرض فأمر لعيينة بنمرقة، أي بوسادة يتكئ عليها، وقال : إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه. ومثل هذه الروايات، على ندرتها، تنطلق دون شك من العقلية القبلية لهؤلاء الرواة من فزارة، وهي تظهر وكأنها رد اعتبار لهذه الشخصية في مواجهة الروايات المعادية له.

---

1) ابن هشام ، ***السيرة***، ج 2، ص 492.

2) الطبري، ***جامع البيان عن تأويل القرآن***، تحقيق محمود محمد شاكر، مراجعة أحمد محمد شاكر، دار المعار، مصر (د-ت)، ج 14، ص 312.

3) الواقدي، ***المغازي***، ج 3، ص 943، ابن هشام، ***السيرة***، ج 2، ص 488.

4) ابن هشام، ***السيرة***، ج 2، ص 492-493.

5) ***المصدر السابق***، ج 2، ص 498-499.

6) ابن شبة، ***تاريخ المدينة***، ج 2، ص 539.

ويبدو أن هذه السياسة قد تواصلت مع أبي بكر كما يتبين من خلال تعامله مع أسرى كبار سادة القبائل الذين شاركوا في حركة الردة. ولعل عفوه عن عيينة بعد فشل حركة ردة طليحة وعن الأشعث بن قيس الذي قاد حركة كندة ثم تزوج من أخت أبي بكر، يؤكد هذا التوجه. كما أن زواج عثمان بن عفان من أم البنين بنت عيينة [1] يؤكد أيضا هذه المنزلة. وتذكر الروايات أن من دفن عثمان بعد قتله ثمانية رهط، بالإضافة إلى زوجتيه نائلة بنت الفرافصة من كلب وأم البنين بنت عيينة بن حصن [2].

من الممكن أن مكانة عيينة قد تراجعت خلال خلافة عمر بن الخطاب كما تبرزه عديد الروايات [3]، اعتبارا إلى سياسة عمر في تقريب أهل السابقة. لكن من الممكن أيضا وجود بعض المبالغة هدفها المس من مكانة هذه الشخصية تبعا لمواقفه المعادية من الإسلام.

2- عيينة والإسلام :

السؤال الذي يطرح في هذا الإطار هو : لماذا لم يندمج عيينة في المشروع النبوي ولماذا "ارتد" عن الإسلام ؟

يبدو من خلال بعض المواقف التي اتخذها عيينة أنه لم يكن له حس سياسي كما يبينه على الأقل وقوفه إلى جانب يهود خيبر في فترة أصبحت فيها المبادرة للدولة النبوية. ولعل رفضه للإسلام هو تعبير عن ترسخ ذهنية قبلية محض، أي ذهنية ما قبل الإسلام المبنية على الغزو والذي ترى فيه العامل الرئيس في تحقيق مصالح القبيلة. فما يبرز هو عدم وعيه بالحركية الجديدة التي جاءت مع الدين الجديد، وبأن تواصل السيادة لا يمكن أن يتحقق بمنأى عن الدولة لاسيما وأنها - أي الدولة - لم تقطع مع هذه النخب وكانت في حاجة إليهم لاختراق القبيلة. فوقوفه إلى جانب

---

1) ابن شبة، ***تاريخ المدينة***، ج 3، ص 953 وج 4، ص 1241، البلاذري، ***أنساب***، ج 13، ص، الطبري، ***التاريخ***،ج، ابن حزم، ***الجمهرة***، ص 256.

2) ابن سعد،***الطبقات***، ج 3، ص 53.

3) ابن شبة، ***تاريخ المدينة***، ج2، 686-690، ابن قتيبة الدينوري، ***كتاب عيون الأخبار***، تحقيق محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، 1414 هـ/1994 م، ج 1، ص 125، ابن عبد ربه، ***العقد الفريد***، ج 5، ص 197-798.

طليحة يعني مراهنته على المستوى القبلي وتشبثه به، خاصة وأنه كانت له قدرات في استنفار قبيلته ضد المسلمين كما تبينه العديد من الغزوات : الخندق وخيبر بالأساس.

ولئن اتسم موقف عيينة برفض الإسلام والتمسك بالمؤسسة القبلية، فإن بعض الروايات تذهب إلى المبالغة في هذا الإطار واختلاق الروايات التي تهدف إلى الإساءة إليه والتي لا تصمد في آن واحد أمام النقد. من ذلك ما ترويه بعضها [1] من أن المؤلفة قلوبهم عيينة بن حصن والأقرع بن حابس وغيرهما، وفي رواية أخرى عيينة بن حصن وحده، جاءوا إلى الرسول وقالوا له : "يا نبي الله، إنك لو جلست في صدر المجلس ونفيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم، يعنون سلمان الفارسي وأبا ذر وفقراء المسلمين، وكانت عليهم جباب الصوف ولم يكن عليهم غيرها، جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك"، فنزلت في ذلك الآية 28 من سورة الكهف : "واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا". وحسب ابن كريب [2]، فإن المعني ب : "وكان أمره فرطا" هو عيينة بن حصن لما كان يبديه من افتخار بنفسه.

من الواضح أن هذه الآية ليس لها علاقة بالمؤلفة قلوبهم ولا بعيينة، كما يبدو أن قصة سلمان الفارسي وغيره من فقراء المسلمين قد وقع اختلاقها، إذ لا يبدو أن عيينة كان مهمتا بتعلم الإسلام. هذا فضلا على أن سورة الكهف هي من سور الفترة المكية. ولعل ما ذهب إليه ابن كثير [3] ينسجم أكثر مع الواقع حيث ذكر أن هذه الآية نزلت في أشراف قريش أثناء الفترة المكية حين طلبوا من الرسول أن "يجلس معهم وحده ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود، وليفرد هؤلاء بمجلس على حدة". وفي نفس الإطار توغل بعض الروايات في إبراز هذه الصورة السلبية لعيينة حيث يذكر البلاذري [4] مثلا أن عيينة سمع رجلا مكفوفا يقرأ القرآن فقال : "ماذا لقينا من محمد، استغوى أقوياءنا، واستهذى ضعفاءنا".

---

1) الطبري، ***جامع البيان***، ج 18، ص 7-9، الواحدي، ***أسباب النزول***، المكتبة الثقافية، بيروت، د-ت، ص 171، البلاذري، ***أنساب***، ج 13، ص 172.

2) الطبري، ***جامع البيان***، ج 18، ص 9.

3) ابن كثير، ***تفسير القرآن العظيم***، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط 2، 1420 هـ/ 1999 م، ج 5، ص 152-153.

4) البلاذري، ***فتوح البلدان***، ص 172.

إن المشكل في هذا المجال هو محاولة بعض الروايات أن تجري على لسان عيينة تخصيصا وسائر المؤلفة قلوبهم عموما عداء، ربما ليس له أي معنى، لعناصر جديدة من الفقراء الذين ليس لهم أي شرف قبلي، والذين يعتمدون في المقابل على شرفهم الإسلامي. وإذا كان من الطبيعي أن يفتخر عيينة بمكانته القبلية، فإنه لا يمكن أن يرتبط ذلك ضرورة بنبذ هذه العناصر من ذوي الأصول القبلية المتواضعة.

وفي نفس الإطار، يذكر الواقدي[1] أنه خلال حصار الطائف الذي جاء مباشرة بعد غزوة حنين، طلب عيينة من الرسول أن يكلم من في الحصن من ثقيف علهم يقبلون بالإسلام. وعند دخوله إليهم أخذ يشجعهم على الدفاع عن حصنهم والثبات على ذلك. ثم لما رجع إلى النبي أخبره أنه دعاهم إلى الإسلام وإلى طلب الأمان وحذرهم من أن يكون مصيرهم كأهل الحصون من اليهود كبني قينقاع وبني النضير وقريظة وخيبر. وتبعا لهذا التحريض، فقد طلب عمر بن الخطاب من الرسول أن يقتله، لكنه رفض لكي "لا يتحدث الناس أن النبي يقتل أصحابه".

هذه الرواية لا يمكن اعتبارها إذ من غير الممكن أن يكلف الرسول عيينة بالتفاوض مع ثقيف باسم الإسلام. كما أن القول بأن النبي رفض قتل عيينة لا معنى له، ولا يتماشى مع سياسة تأليف رؤساء القبائل وأشرافها. هذا فضلا على وجود قصة مشابهة تقول أنه لما حرض عبد الله بن أبي الأنصار على المهاجرين في غزوة المريسيع سنة 6 هـ/ 627 م طلب عمر بن الخطاب من الرسول قتله [2]. لكن النبي رفض ذلك حتى "لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه" [3].

يبدو إذن أن موقف عيينة السلبي من الإسلام هو الذي كان وراء اختلاق عديد الروايات التي أسبغت عليه سلوكا مشينا من شأنه أن يدني من شرفه القبلي، ذلك الشرف الذي يعتبر الأساس الرئيس لمكانته تبعا لخلوه من أية منزلة في الإسلام. فالروايات تصنف عيينة من أصحاب الجهل والرأي الضعيف، حيث ينسب إلى النبي في حديث مرسل لا يرتقي إلى الصحة، أنه لقبه "بالأحمق المطاع" [4]، "وبالرجل

---

1) الواقدي، ***المغازي***، ج 3، ص 932-933.

2) الواقدي، ***المغازي***، ج 2، ص 416-418.

3) ***المصدر السابق***، ج 2، ص 417.

4) ابن حبيب، ***المحبر***، ص 249، ابن حجر، ***الإصابة***، ج3، ص 54.

الضغيط ،[أي الجاهل وضعيف الرأي]، المطاع في قومه" [1]. وفي رواية لابن شبة [2] : أن عيينة كان أهوج مجدودا، والأهوج هو الأحمق وكذلك الشجاع الذي يرمي بنفسه في الحرب، أما المجدود فهو كثير الحظ [3]. كما تتحدث عديد الروايات عن اتسامه بجفاء البدو من ذلك أن الرسول طلب منه أن يستأذن قبل الدخول عليه، لكنه رد بأنه أقسم أن لا يستأذن على مضري [4]. هذا علاوة على وصفه بالجشع، ففي الجعرانة، حين خير في السبي اختار عجوزا طمعا في أن يكون لها نسبا ويعظم فداؤها، ثم تبين أنه لم تكن لها مكانة في هوازن [5]. كما ينسب إليه أنه قال [6] خلال حصار الطائف : "إني والله ما جئت معكم أقاتل ثقيفا، ولكن أردت أن يفتح محمد الطائف فأصيب جارية من ثقيف فأطأها لعلها تلد لي رجلا، فإن ثقيفا قوم مباركون". وواضح أن مثل هذه الرواية ترمي إلى إبراز قصور اهتمامات عيينة عندما تحصرها في رغبته بالفوز بجارية.

وعموما عملت الروايات على الحط من أخلاق عيينة لأنه لم يكن ممكنا المس من مكانته القبلية. ومن هذا التوجه يمكن تفسير وصفه "بالأحمق المطاع". لذلك ولئن لا يبدو من الغريب أن تتصف شخصية عيينة ببعض الجفاء تبعا لأصوله البدوية، فإنه يبدو في المقابل أن الروايات قد استغلت هذه الأصول لترسم لسيد بني فزارة هذه الصورة القاتمة، كما أنه من الممكن أن تكون قد غيبت بعض الصفات الإيجابية لهذه الشخصية والتي تبقى من ميزات السادة والأشراف.

كما يتبين أيضا أن عيينة كان رافضا لسلطة الدولة باعتبار أنه كان يرى في نفسه سيد قبيلة قبل أن يكون مسلما. ولعل مثل هذه القناعات قد ميزت أيضا العديد من سادة البدو من المؤلفة قلوبهم. فمثلا عندما قرر الرسول إرجاع أسرى هوازن من الأطفال والنساء إلى ذويهم، قبل بذلك كامل عناصر الجيش باستثناء بعض قادة البدو : الأقرع بن حابس وعباس بن مرداس وعيينة بن حصن الفزاري باعتبارهم

---

1) ابن منظور، ***لسان العرب***، ج 7، ص 343.

2) ابن شبة، ***تاريخ المدينة***، ج 2، ص 536.

3) ابن منظور، ***لسان العرب***، ج 2، ص 394، وج 3، ص 107.

4) ابن شبة، ***تاريخ المدينة***، ج 2، ص 537.

5) الواقدي، ***المغازي***، ج 2، ص 932-933.

6) الواقدي، ***المغازي***، ج 3، ص 937. تتعدد الروايات في هذا الشأن. انظر مثلا : البلاذري، ***أنساب***، ج 13، ص171-173، الطبري، ***التاريخ***، ج 3، ص 85.

موكلون عن مصالح قبائلهم كما تبينه قولة تنسب إلى عيينة "أما أنا وفزارة فلا". ولم يقوموا بإرجاع ما بأيديهم من الأسرى إلا بعد أن عهد إليهم النبي بأن يفرض لهم من أول فيء يتحصل عليه المسلمون [1].

خاتمــة

ارتبطت مكانة عيينة بن حصن الفزاري بانتمائه إلى بني بدر، بيت فزارة وأحد أبرز بيوتات العرب التي سادت خلال فترة ما قبل الإسلام. كما ارتبطت أيضا بما تميز به من قدرات قتالية بالأساس أهلته لتولي القيادة في المواقع والأيام التي قاد فيها قبيلته وأحيانا مجموعات أوسع تنتمي إلى غطفان وحليفاتها. لذلك لم يكن عيينة يرى في نفسه عند ظهور الإسلام سوى سيدا في قومه. ويبدو أن هذه الذهنية القبلية هي التي جعلته يرفض الإسلام والاندماج في المشروع النبوي الذي من أهدافه توحيد قبائل العرب. ويبدو أن مثل هذا الموقف هو الذي كان أيضا وراء الصورة القاتمة التي تناولته بها أغلب الروايات. وإذا كنا نرجح اتسام سيد بني فزارة ببعض جفاء البدو، فإن المشكل هنا هو التركيز على شخصيته دون غيره من قيادات البدو الذين اندمجوا لاحقا في الإسلام على غرار الأقرع بن حابس وحاجب بن زرارة. ونفس التوجه نجده في تناول شخصيات أخرى حيث يحتد العداء في تناول سيرة مسيلمة بن حبيب مثلا تبعا لوقوفه ضد سلطة الدولة خلال خلافة أبي بكر. ولئن كان من الطبيعي أن لا يكون الشرف مطلقا،أي أنه لا يمكن بأية حال أن يتصف الفرد بالكمال، كما تبينه تراجم بعض كبار سادة القبائل وأشرافها، من أمثال أبي سفيان بن حرب مثلا والذي اشتهر بالبخل، فإنه لا يمكن في المقابل أن تلتصق بشخصية عيينة كل تلك السلبيات، وهو ما قد يعني تغييب بعض الصفات الإيجابية التي عادة ما تترافق مع تولي السيادة.

---

1) الواقدي، ***المغازي***، ج3، ص 951-952.